(١٠)

الحضارة جوهرة
ولا ينهض بها إلا «جوهرى» حضارات*

أعتقد أن معظم أهل الدنيا يحبون مصر أكبر مما يحبها المصريون لأن المصرى الذى ولد فى مصر وعاش فيها قد اعتاد جمالها حتى لم يعد يشعر به إلا قليلا بل إن الكثيرين من المصريين لا يعرفون قدرا منها بل هم يشكون منها وفى أيامنا هذه لا أكاد أقابل مصريا إلا وجدته يشكو من مصر ويحكى لى حكايات يبرر بها هذا النفور من مصر والشكوى من أهلها وأنا الذى أحببت مصر منذ كنت صبيا وشابا وأحاول - أحيانا دون فائدة - أن أفهم الشاكين أنهم غافلون عن مصر وجمالها وأنهم لابد أن يعيدوا النظر فى أفكارهم حتى يتبينوا أن مصر من أجمل بلاد الدنيا وأنا شخصيا كان جمال مصر طول عمرى رأس مالى، وقد درست فى أوربا وقضيت هناك سنوات طويلة واستمتعت بجمال بلاد مثل فرنسا وألمانيا وسويسرا.

ولكن مصر بالذات ظلت أجمل بلاد الدنيا فى نظرى ومازلت إلى اليوم أرى أننا مهما أحببنا مصر فلن نصل إلى ما يستحق هذا البلد من محبة بل أنا أشعر أننا مهما أحببناها فإننا لا نزال بعدين جدا عنها، وقد زرت منطقة القناة وعجبت بمدنها وطبيعتها، وعبرت النفق تحت القناة وأفضيت إلى سيناء، وهناك وجدت جمالا لا أستطيع أن أصفه لك، فإن الجهد القليل الذى بذلناه فى تعمير سيناء أعطانا مناطق هى الغاية فى الخضرة والرخاء، وقد زرت سيناء من زمن بعيد ولم يستوقف نظرى إذ ذاك جمال دير سانت كاترين وما يقاربه، ولكنى هذه المرة ظللت صامتا أتأمل ما أخرجته مصر بالعمل القليل بل إننى عندما وصلت شرم الشيخ وأطللت على مضيق تيران ووصلت إلى رأس محمد قلت فى نفسى حقا إن

---

* نشرت هذه المقالة فى ١١ أغسطس ١٩٩٢م

مصر جوهرة والجوهرة فى يد الجوهرى تصبح عجيبة، فإذا كنت جوهريا استطعت أن تفعل العجب بأرض مصر، وإذا كان عندى رجاء أتوجه به إليك فهو أنك إذا كنت تبحث عن مكان تبنى فيه نفسك فاذهب إلى جزيرة تيران. وانظر ماذا تستطيع أن تصنع هناك وأنت هناك تشعر أن كل قطعة من مصر من الممكن أن تصبح جوهرة فى غاية الفتنة إذا وجدت الجوهرى الذى يعرف قيمة الجمال ويعرف كيف يصنعه وأبسط مثال لذلك ما فعله المصريون القدماء بمصر فهؤلاء الناس وجدوا مصر بحيرة من مياه النيل وكانوا جوهريين موهوبين، فوضعوا أيديهم فى العمل واستخرجوا مصر من مياه النيل وحولوها إلى جوهرة ومن الجوهرة صنعوا جواهر وهذه هى العجائب التى مازال الناس يعجبون بها إلى اليوم وإذا أردت أن تأخذ أمثله من جواهر مصر القديمة فأذهب إلى المتحف المصرى القديم لترى العجب وأنا شخصيا عندما تضيق بى الدنيا وأحتاج إلى أن أرّوح عن نفسى فإننى أذهب إلى المتحف المصرى وأرى العجب، لأننى فى الواقع لا أصدق ما أرى من تحف عجيبة لا يصدق الإنسان كيف خطرت على بال المصرى القديم وكيف صنعها بيديه.

وأنا أعرف أن الدنيا كلها تشكو الآن لأن الناس فى الدنيا كلها يتكاثرون بصورة غير معقولة وفرص العمل الموجودة فعلا قليلة فإذا أردت أن يكون لك عمل محترم يدر عليك رزقا كبيرا فلابد أن تخلق أنت هذا العمل وتقوم بتنفيذه بنفسك ومصر مليئة بفرص العمل، ولكننا لابد أن نكتشفها ونركز جهدنا على القيام بها وعجيبة مصر لا تتجلى فحسب فى التماثيل البديعة واللوحات التى رسموها بمهارة تامة فى فجر التاريخ، بل إننى لاحظت أن المصريين هم الذين اكتشفوا عشرات الجواهر الحضارية الخاص بالأدوية والأشياء الصغيرة التى تجعل حياتنا أسهل، وقد ألف عالم إنجليزى كتابا عن منطقة سقارة، والمنطقة عجيبة من العجائب فعلا، فهى لا تقتصر على الهرم المدرج، بل إنها مدينة فعلا لها سور عظيم له أبواب، وهى تدلك على أنه قد عاش فى مصر فى عصر الأسرات من الثالثة

إلى السادسة شعب متحضر؟ لأن حضارة هذه الفترة عجيبة، وهى تدلك على أن مصر إذا كانت قد وصلت إلى عصر أهرامات الجيزة وأبى الهول، فإنها وصلت بجهد أبنائها الذين لم يقصروا فى العمل قط وعرفوا كيف ينهضون ببلدهم إلى هذا المستوى الحضارى العظيم الذى مازال يحير الدنيا إلى اليوم وأنت كذلك تستطيع أن تصل بنفسك وعملك إلى مستوى عظيم ولكن الأمر يحتاج إلى جهد ذهنى ويدوى ضخم ومتصل، وقد زرت المناطق الصحراوية الغربية التى يدعوننا اليوم إلى النهوض بها ووصلت إلى منطقة العوينات فى جنوب غرب مصر وتعجبت من العجائب التى وصل إليها المصريون الذين ذهبوا إلى هناك وأخذوا قطع أراض كبيرة أو صغيرة وحولوها من مناطق رمال إلى مناطق خضرة وحبوب، وقد لقيت هناك مواطنا عظيما وهب نفسه هو وأولاده هناك وزرعوا كل الحبوب التى تؤكل، ولكنى لاحظت لم يصلوا إلى ذلك النجاح إلا بالعمل المتصل بل إن بعضهم خاض معارك عنيفة مع بعض صغار الموظفين الذين حاولوا أن يقفوا فى وجه العمل وفرضوا ضرائب ووقفوا من أول الأمر موقف العداء من هؤلاء الأبطال المصريين، ووجدت أن أولئك المجاهدين بدءوا بإنتاج متواضع جدا واستمروا يعملون بجهد ومواظبة لزيادة الإنتاج حتى أصبحت أراضيهم الآن جزءا من الثروة المصرية القومية، مازالوا يعملون إلى اليوم بجهد عظيم لأنهم كما سبق أن قلت لك جوهريون يعرفون كيف ينشئون الثروة القومية.

وعندما كنا صغارا كانت تعيش فى بلادنا جماعات كبيرة من الأرمن واليهود واليونان ممن كانوا يحسنون صناعات معينة مثل السباكة وأعمال الكهرباء، وكان أولئك الناس يعملون كثيرا جدا، ويكسبون كثيرا جدا، وأذكر أننى ذات مرت كنت من بين المتزاحمين على دكان رجل أرمنى كان يبيع كل أصناف الورق ويفصلها لك كما تريد، وفى تلك المرة وأنا أرى الناس يتزاحمون على ذلك الدكان قلت فى نفسى ومالى لا أفعل فعل هذا الرجل وأكسب مثل ما يكسب؟ أليس هذا أفضل من التزاحم فى الفصول والجرى وراء الشهادات ولا يعرف أحد إن كنت أكسب مثله أو لا أكسب،

وعندما عدت إلى البيت قلت لأمى ما أفكر فيه، فتجهم وجهها، وقالت فى غضب يا ندامة تترك الدراسة وتنصرف عن طريق الجامعة وتجرى وراء دكان، فقلت لها والله يا أمى لو رأيت كيف يتزاحم الناس على دكان هذا الرجل ما قلت لى هذا الكلام، هؤلاء الناس يا أمى يعرفون كيف يجمعون المال وكيف يعيشون. وأنا طبعا ما كنت لأترك طريق الدراسة والجامعة ولكنى أحببت أن أقول لك إننا لو كنا نطلب الرزق والكسب لكانت هناك طرق أخرى كثيرة غير الطريق الذى يسير فيه هذا الرجل الذى حدثتك عنه لا يمكن أن يكسب فى اليوم أقل من عشرين جنيها قالت وما ذلك؟ حتى لو كانت ثلاثين جنيها فى اليوم فنحن لا نريدها لأننا لا نريد أن ننفق حياتنا فى جمع المال ومحل السباكين الذى تعرفهم فى الشارع خلف البيت يكسب الواحد منهم فى اليوم الواحد أضعاف ما يكسبه تاجر الورق هذا، لأننا فى الحقيقة نريد أن نشترى وطننا بالعمل الفكرى ولا نريد أن نبيعه بالمال، وعندما عاد أبى إلى البيت حكت له أمى ذلك طبعا وأبى لم يكلمنى فيه لأننى كنت من المقبلين على الدراسة وعشاقها ولكنه حكى الحكاية لصديق له فى المقهى وصديقه هذا كان وكيل المدرسة كلما لقيته قال لى: أنت تظن أن تاجر الورق يكسب فى اليوم عشرين جنيها، ولكنى أقول لك أنه يكسب ثلاثين أو أربعين جنيها فى اليوم لأنه تاجر ماهر وهو يعرف كيف يصنع المال إن مصر يا بنى كنز لأولئك الرجال، وفى بلادنا يعيش مئات من الأرمن واليهود واليونان، وهم يعرفون كيف يجمعون المال وهم يفدون على مصر بالمئات، لأنهم يعرفون أن بلدنا غنى جدا، ولكننا ونحن أهلها لا نبيع وطننا بكل مال الدنيا وأنت ستدخل الجامعة، وستتخرج فيها ولن تكسب كسب السمكرى أو تاجر الورق، ولكن قدر مصر سيزداد بك ومركزها سيثبت فى العالم بفضل شباب مثلك وجهدهم، إننا نريد أن يرتفع بنا مكان بلدنا لأنه فى الحقيقة جوهرة من جواهر الدنيا، ومصر فى الواقع غنية جدا، ولكننا لابد أن نتعلم كيف نزيد قدرها ونرتفع بمكانها فى عالم العرب والإسلام وإفريقية وقد تأخرنا كثيرا فى العصور

الماضية، ولكننا والحمد لله تخلصنا من المماليك والترك وسنتخلص طبعا من الإنجليز، ولكن من المهم جدا لنا أن يكون لمصر أطباء كثيرون ومهندسون أكثر مما تحتاج إليه وهؤلاء سيكسبون أضعاف ما تتصور أنت فى العمل فى الخارج، ولكن المال ليس غايتنا الوحيدة إننا نحن نريد أن ننهض بمصر ونجعلها بلدا من الجواهرجية الذين يعرفون بحبهم لمصر كيف يجعلونها من أغنى بلاد الدنيا.

وفى الماضى كان المال يزيد متاعب صاحبه وكان الأغنياء دائما معرضين للأخطار والحكومات الأجنبية كانت تشترك مع اللصوص فى سرقة الأغنياء ولهذا كانت الغالبية العظمى من الناس فقراء لأن الفقير وحده كان الآمن وإذا لم يكن معك ما يسرق فمم تخاف؟

ولكننا اليوم نعيش فى عالم جديد عالم مستقر هادئ يشرف عليه رجال أمناء حقا إن هناك لصوصا ولكننا لا ينبغى أن نخاف منهم، ولكن لابد من التصدى لهم، وقد حكيت لك حكاية الموظف الصغير الذى أراد أن يسرق صاحبى ويفرض عليه ضريبة مجمعة لقد ضربناه وأدخلناه المستشفى وقد تعلم بذلك كيف يحترمنا ولم يعتد علينا بعد ذلك أبدا.

المهم فى زماننا هذا أنك لابد أن تكون ذا عزيمة منذ البداية وكل الأعمال أصبحت متساوية والسمكرى والطبيب أصبحا صنوين فاختر كيف تريد أن يكون مستقبلك منذ البداية وسر فى طريقك ولا تخف، وأنا شخصيا أختار لك العمل اليدوى كالكهرباء مثلا وترسم طريق دراستك وتمرينك على أساس العمل الكهربائى والمسألة هنا تحتاج إلى دقة فى الاستعداد لأن الطريق واضح والمستقبل مضمون والعمل الكهربائى معروف. فإذا كنت فى المرحلة الإعدادية فإن عليك أن تفهم أن طريق الدراسة فى المرحلة الثانوية لن ينفعك فى شىء ومصر بلد غنى جدا بالمعاهد والدراسات العليا والحكومة لا تقصر فى شىء وكل الواجب ملقى على كتفك أنت، فلابد أن تدخل المعهد الذى يؤدى بك إلى العمل فى المسائل الكهربائية

وأنت تستطيع أن تعمل وتكسب وأنت تدرس لأن كل عمل يزيدك خبرة وقوة، وأنت ترى أننا لا نكاد نستطيع شيئا حيال الكهربائيين، فهم يفرضون علينا الأتعاب التى يرونها، ومن المؤكد أنهم يكسبون المال الذى يقررون كسبه منذ البداية.

ولكن الزراعة هى أكبر عمل منتج فى مصر ومن آلاف السنين اشتهرت مصر بإنتاجها الزراعى فى كل شىء ومعاهد الزراعة فى بلادنا كثيرة ومتنوعة، وأنت ترى اليوم أننا رغم العدوان على الأراضى الزراعية وتحويل الكثير منها إلى أراضى بناء، فإن إنتاجنا الزراعى زاد على إنتاجنا فى الماضى لأننا أصبحنا شعبا مستقلا يعمل ما يريد، والدنيا كلها فى انتظار ما تنتجه أرضنا، وأنا يعجبنى الزراع المخلصون الذين يضيفون إلى ثروتنا القومية خبرة مئات السنين الماضية، ولى صديق كريم أخذ من الحكومة أرضا فى أرض جنوب النوبارية، واشتغل فيها بزراعة الخضر والفاكهة، وقد واجه المصاعب بكل شجاعة، ووجد العمال والمساعدين دون صعوبة وأنتج إنتاجا عظيما من العنب والفراولة وأصناف الخضراوات وعرف كيف يصدر ما يزيد منها، ولكن سلاحه الأكبر هى أمانته، ونحن عندما نفكر فى المزارع المصرى التقليدى الذى كسب ثقة العالم فى الماضى فإننا ينبغى أن نذكر أن رأس ماله لم يكن العمل الزراعى فى ذاته بل الأمانة فى العمل والفكر، فى أيام الملكية، والاحتلال عاش وعمل فى مصر ألوف الزراع وحافظوا على مصر من الضياع، ومن المسائل التى لم يفهمها رجال الثورة وأدت إلى فشلهم فى الكثير مما تناولوه من أعمال إنهم مع حماسهم الشديد لمصر لم يحسنوا فهمها، وعبد الناصر كان رجلا عبقريا ولاشك، وكانت فيه قوة وزعامة ولكنه اتجه منذ البداية إلى محاربة أهل الغرب وعاداهم وخدعه هتاف الجماهير، ولكن انصرافه إلى العمل العربى لم ينفعه كثيرا لأنه لم يفهم العرب فى الظروف السيئة التى كانوا فيها بعد الحرب العالمية

الثانية وإسرائيل درسته وعرفت عيوبه ومضت تستعد للقضاء عليه فى صمت، وعندما تدخل فى ثورة اليمن وأرسل الألوف من الضباط والجنود إليها أدركت إسرائيل أن الفرصة التى كانت تنتظرها قد جاءت، وعبد الناصر استخف بإسرائيل أكثر ما ينبغى.

وما جاءت مسألة الخلاف على مضيق تيران واحتل عبد الناصر منطقة أيله وظن عبد الناصر أنه قد وجه إلى إسرائيل ضربة قاتلة. قال الإسرائيليون أخيرا جاءت الفرصة، هيا! وتدفقت القوات اليهودية على سيناء وضاعت منا سيناء وضرب اليهود معسكراتهم على ضفاف قناة السويس وأوقفوا الملاحة فيها، ووقعنا فى مشكلة لم تستطع التخلص منها إلا بعد قرابة السنوات الست (١٩٦٧م – ١٩٧٣م) وهذا درس لا ينبغى أن تنساه مصر أبدا، لقد دفع عبد الناصر حياته ثمنا لهذه الهزيمة، ولا ينبغى أن نقع فى مثل هذا الخطأ مرة أخرى.

وكلنا نعرف أن الحكومة اليوم تجمع الوظائف ثم عين الشبان فيها على مزاجها، وهى فى الواقع ألوف الوظائف مرة واحدة كل بضع سنوات، ولو كنت من شباب اليوم لما انتظرت هذه الوظائف التى تأتينى كأنها إحسان من الدولة على شباب خيبان عاجز عن أن يوجد لنفسه وظائف مناسبة، ولكنى كنت أطلب من الدولة أن تعطينى الفرصة لكى أخلق لنفسى وظيفة على مزاجى، أو أنا أقول هذا لأننى أعرف أن الدولة تتيح الفرصة لمن تريد من الشباب أن يأخذ قطعة أرض صحراوية ممهدة للإصلاح والإعداد والإنتاج، والحكومة تعطى لمن يأخذون هذه القطع من الأرض فرصا واسعة للاستغلال، وأنا أعرف أن إكمال إعداد هذه الأراضى للزراعة والإنتاج يتطلب جهدا ووقتا وعملا قد يطول سنوات، ولكنى فى النهاية سأجد بين يدى قطعة الأرض ممهدة أزرع فيها ما أريد، وقد تقدمت الكيمياء الزراعية فى عصرنا تقدما عظيما، وهناك معاهد كثيرة تعد للقيام بهذه الأعمال ثم أن الدولة لديها خبراء مخلصون يستطيعون أن يقدموا إليك النصيحة

العلمية الخالصة التى تستطيع بها استغلال أرضك، وأنا أعرف أن هناك شبابا مصريا يواجه هذا العطاء بصورة من الغش وقلة الأمانة لا تليق، فبعضهم مثلاً بعد أن يتم إصلاح أرضه وإعدادها وتنتج له محاصيل الفاكهة والخضار يخرج إلى البحر بكميات ضخمة من إنتاجه ويبيعها لناس من أمثاله من اليونانيين والإيطاليين ويضعون ما يصل إلى أيديهم من ذلك المال فى جيوبهم ويعودون إلى مصر ليكرروا هذا الطراز من سوء التصرف والغش للوطن وأحب أن أقول للشباب إن هذه الصور من الغش وسوء الاستغلال نادرا ما تستمر فى الكسب، بل سمعت عن كثيرين جدا من هذا الطراز من الشباب بدلا من أن يصارحوا الدولة بما أنتجوه ويتعاملوا مع مصر بالأمانة يخبئون أموالهم ولا يصارحون أحدا بما يفعلون، وهؤلاء المستغلون قد ينجحون فى الغش مرتين أو ثلاثا ولكن لابد أن تصادفهم ظروف غير مناسبة ويقعون وقعات مخربة، لأنهم يتعاملون مع لصوص لابد أن يخدعوهم فى النهاية وينهبوا أموالهم، والحقيقة أنه لا شىء يكسب وينفع الإنسان إلا الحلال.

والواقع أن البلاد المتقدمة لا تقدم الوظائف إلى الشباب على الطريقة التى نريدها ونفعلها نحن، لأنها مهما تفعل فإن الحكومة لا تستطيع أن تجد الأعمال الكافية للشبان المحتاجين، وإنما هى تخدم المرافق وتسهل سبل العمل وتفتح أبوابه وتدع الشبان يكتشفون فرص العمل ويتجهون إليها، وأذكر أننى عندما زرت لندن للمرة الثانية وكنت شابا لقيت شابا يعمل فى شركة كبيرة وصادقته فقال لى يوما: أنت مصرى ولابد أنك تحسن اللغة العربية؟ فقلت: طبعا فقال: إذن فأنت تستطيع الترجمة من العربية إلى الإنجليزية قلت: لابد. قال إذن فاذهب إلى الشركة الفلانية وهذا هو عنوانها واسأل عن المستر آلان درورى وقل له: أنا الشاب الذى حدثك عنه فلان، وفعلا ذهبت، وهذا الرجل أخذنى فى الحال إلى رئيس عظيم يعمل فى مكتب محترم وقدمنى إليه، فأخرج الرجل أوراقا كبيرة وناولنى إياها وقال: اذهب إلى ذلك المكتب الصغير الذى تراه هناك فى

أقصى الحجرة المجاورة وحاول أن تترجمها إلى الإنجليزية. وهات الأوراق التى تعملها فى آخر أيام العمل وفعلت ما قال لى وذهبت بها إلى حوالى الثالثة بعد الظهر، فأخذها منى وأمرنى بالجلوس ومضى يراجع ما فعلت، ثم قال لى لا بأس: بهذا العمل، هل أنت مستعد للعمل معنا؟ قلت نعم إذن تأتى فى الصباح وتقابل سكرتيرى فلان، وهو سيعطيك العمل، فقلت: لماذا انتظر إلى الغد أنا أواصل العمل اليوم، كل ما أحتاج إليه ساعة أتغدى فيها ثم أعود إلى العمل، فقال لى أو لم تتغد بعد! فقلت لا فنادى سكرتيره وقال له: خذه إلى المطعم إنه سيعود إلى العمل بعد الطعام، أنت تعرف مكتبه فى الغرفة المجاورة، قال لى: تغدى ثم تعود إلى العمل كما تقول، سيعطونك أوراق الترجمة بعد أن تتغدى وسأراك أنا فى الغد.

وحدث هذا بالفعل، وقد أعجبنى العمل فى هذه الشركة فاستمرت فيه أربعة أشهر عدت بعدها إلى باريس ومعى نقود طيبة، وكنت قد اشتريت من لندن ملابس جيدة فى غاية الجمال، لا أذكر مقدار الفائدة التى أفدتها من هذا العمل، لقد تحسنت لغتى الإنجليزية وتحسن مركزى المالى واتسعت أمامى فرص العمل فى أوربا لولا الحرب العالمية الثانية التى غيرت حياتى كلها، ولكنى أقول لك إننى اكتشفت أنه لا شىء يبنى الإنسان مثل العمل والمسئولية والإصرار على النجاح، وسترى أنك إذا أردت النجاح فلابد أن تنجح، لأن النجاح هو العمل الذى تقوم به وتبنى به نفسك وتكسب المال الذى يعطى الحياة طعما.